تقديـــم

تندفع الكلمة فى خلايا الإنسان الحر اندفاع العصارة الحية فى النبتة النامية ؛ ذلك لأن الفكر هو سِمَة الإنسان المميزة .

أما جمود العقل فهو توقف فى مجرى الحياة .. وهو انهيار لكيان الإنسانية والإنسان ، وامتهان للتاريخ والمدنية ، وهوى بالفرد والجماعة إلى الحضيض الأوهد .. وسير بهما إلى فناء .

قد يرى بعض الناس فى هذا الكلام تهويلا أو مبالغة ، ولكننى أؤكد أنه تصوير دقيق لواقع جاسم يظهر لكل ذى عين مبصرة .

ذلك أنه ماتوقف الفكر ، أو تهددته أية عوارض طارئة إلا كان هذا دليلا أكيداً على حقائق يراد إخفاؤها .. وماخفيت الحقائق إلا عميت الأبصار عن الطريق ، وتوقف عن السير ركب التاريخ الزاحف .

وعن طريق حرية الفكر يتم تشخيص كافة الأمراض أو الآفات التى يصاب بها المجتمع ، وعن طريقها ومن أجلها يميل الناس إلى البحث الهادف ، ولا يستسلم قوم من الناس إلى الركود أو النوم .. أو السلبية المقيتة .

وليس فى العالم كله من ينكر قيمة الفكر إلا أن ينكر قيمة نفسه ... إن حرية الفكر هى صميم المعجزة ..

وتحرر العقل من قيوده معجزة فى صميمها .. ذلك أن الحواجز عديدة : أولها السلطة ، وثانيها التقاليد ، وثالثها المعتقدات الموروثة غيرّ القائمة على الأدلة والبراهين الصادقة .. ورابعها وخامسها ...

وإذا أفلت الإنسان الحى من نطاق كل أولئك أصبح متفلسفا .. فإذا اهتدى إلى الطريق الرئيسى ، وبانت له معالمه فهو الفيلسوف الذى يخدم مجتمعه ويخدم الإنسانية .. فيكتب له الخلود إذ يساهم فى بناء الحضارة .

وإذا كان الفناء قد كتب على كل حى ، فقد وجب ألا نقول عن الفيلسوف : إنه مات .. فلازلنا إلى اليوم نقرأ عن سقراط ، والفارابى ، وديكارات ، والغزالى ، وإقبال ..

يموت الشبح الفانى فيتكسر فى ظلام الأبد .. ويبقى الكيان العظيم الذى يمد الناس بالحياة ، وبالحرية ، وبالحركة .

***

والتاريخ روح من الكائن الأعظم ، أو هوهبته الكبرى ، وضع لها النواميس الثابتة ، وجعل من أول هذه النواميس أن من يقرأ ، ومن يبحث ، ومن يفكر فهو إنسان .

أما الجمود – فهو معجزة الجماد وخاصته ..

وما توقف إنسان عن القراءة والبحث إلا كان كالرجل الأبكم .. والجماد الذى لايقدر على شىء ..

ومن عجب أننا نجد كثيراً من مؤرخى الفلسفة يعيبون دائماً على الفلسفة الإسلامية ، وعلى الفلاسفة المسلمين أنهم كانوا يعتمدون على الفلسفة اليونانية والفلاسفة اليونان ، ويشرحون آراءهم ..

وقد كانت الفلسفة اليونانية ذاتها فلسفها مقتبسة عن غيرها من الفلسفات ..

وقد أخذ فلاسفة المسلمين عن أسلافهم من فلاسفة اليونان ، وكانوا شراحا لآرائهم ونظرياتهم .

وأخذ اليونان – على خلاف مايذهب بعض المتعصبين – عن أسلاف لهم سبقوهم فى ميدان الحضارة والفكر .. أخذوا عن مصر وبابل وآشور وغيرها .

يقرر الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه « الحضارات الأولى » : « إنه إلى زمن ليس بالبعيد كان الناس يعتقدون أن اليونان غير مدينين فى فنونهم وعلومهم وآدابهم لغيرهم من الأمم التى سبقتهم ، ولكن هذا الرأى لم يعد التسليم به ممكناً ؛ فإنه وإن كانت الحضارة القديمة قد بلغت الأوج فى بلاد الإغريق إلا أنها ولدت ونمت فى الشرق ، ونحن نعلم اليوم أنه فى العصر الذى لم يكن فيه اليونان إلا جهلة وبرابرة ، كانت هناك حضارات لامعة زاهرة على ضفاف النيل ، وفى سهول كلديا » فليس يعيب الفلسفة الإسلامية ولا الفلاسفة المسلمين أنهم اقتبسوا عن أسلافهم من فلاسفة اليونان ، وأنهم كانوا شُرَّاحا لآرائهم ونظرياتهم .. .

ولعل هؤلاء الحريصين على إبراز هذه الحقيقة أن يجهدوا أنفسهم فى البحث عن الجديد المبتكر فى هذه الفلسفة الإسلامية ؛ لنستطيع أن نضعها فى الميزان كتراث فكرى له أصالته .. ولنستطيع أن نتبين مدى ما استفادته الأجيال من هذا التراث ..

إنه لايزال من واجبنا أن نجهد أنفسنا فى البحث والتنقيب .. ولايزال من واجبنا أن نلم بعالم الأفكار على اختلافها ..

ولايزال من واجبنا أن نبذل الجهد فى تحرى الصواب من أى اتجاه يرد إلينا أو نصل إليه ..

وقد كان الباحثون العرب ينشدون المعرفة للمعرفة ، ويترجمون آثار من سبقهم .. ويزيدون عليها ماتصل إليه عبقرياتهم ومداركهم .. يقول الكندى :

« وينبغى ألا نستحى من الحق ، واقتناء الحق من أين يأتى ؛ وإن أتى من الأجناس القاصية ، والأمم المتباينة » .

وهو نوع من الحياد الفكرى الإيجابى ، يفتح النوافذ على مختلف الآراء ، ومتباين الأفكار تهب على العقل فتكسبه صحة ونماء ..

وإدراك الحق هدف تتضامن الأجيال الإنسانية للوصول إليه على مر الأجيال ، كل جيل يضيف إلى من سبقه ، ويسلم التراث إلى من يليه ..

ولسنا نجهل الحفاوة التى قوبل بها فلاسفة المسلمين فى الأجيال التالية إلى يومنا هذا ..

نقل عنهم الأوربيون آثارهم وأفكارهم .

كان فلاسفة المسلمين فلاسفة موسوعيين دونوا تراثا ضخما وسلموه إلى الْخَلَف من بعدهم ، فاستفادت الأجيال من آثارهم حتى فتنوا بهم ..

وقد طبع « القانون » لابن سينا – كما تذكر دائرة المعارف الإسلامية باللاتينية ست عشرة مرة فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وأعيد طبعه عشرين مرة فى القرن السادس عشر .

وظل هذا البحث الرائع يدرس فى أوربا كمرجع من أهم المراجع العلمية والفلسفية .

كما ظلت بحوث فلاسفة المسلمين نبع الحضارة ، وسبيل المعرفة الصحيحة فى المدنية والفكر .

وإذا أردنا أن نضرب مثلا من آلاف الأمثلة ، فأمامنا منهاج ديكارت فى المعرفة فقد أثبت ديكارت وجود الذات عن طريق الفكر .

ذلك أنه أحس إحساساً واضحا بأنه يفكر .. وبالتالى أصدر حكمه بأنه موجود .

وقد كان الرئيس ابن سينا (المولود عام ٩٨٠ ميلادية) يرى أن الفكر حركة النفس الناطقة ، أو هو دليل وجودها ، وهو أول من لجأ فى هذا إلى التجربة النفسية ، فهو أستاذ « ديكارت » على خلاف مايذهب إليه مؤرخو الفلسفة من أن ديكارت القرن السابع عشر الميلادى هو أول من اكتشف هذا المعنى .

قال الرئيس :

« لنتصور إنساناً محجوب البصر لايرى من إهابه شيئا ، متباعد الأطراف لايلمس جزء من جسمه جزءاً آخر، يهوى فى خلاء لايصدمه فيه قوام الهواء حتى لايحس ولايسمع – أليس يغفل مثل هذا الإنسان عن جملة بدنه ؟!

أليس يشعر بشيء واحد فقط هو ثبوت إنِّيَّتِهِ ؟!

فالنفس إذن موجودة وجوداً غير بدنى .

هذا البرهان الذى شرحه الرئيس هو نفسه الذى اتجه إليه ديكارت واتخذه دليلا على وجود الذات ، مما جعل بعض الباحثين الغربيين أمثال فالو Valois وفلالارنى Fourlani يميلون إلى القول بإمكان اطلاع ديكادت على آراء الفيلسوف الإسلامى .

وإذا كان الفيلسوف الفرنسى قد انتقل فى بحوثه الفلسفية من معرفة « الذات » إلى معرفة « الله » ثم إلى معرفة « العالم » فان نقطة البدء كانت من منهج الرئيس ، الفيلسوف الإسلامى .

فالإنية عند ابن سينا وليدة الشعور الواضح بوجودها – حتى ولو لم يوجد الجسد على حد مايذهب إليه الافتراض .

وينتقل « ديكارت » فى كتابه « التأملات » ليضيف لبنة جديدة لهذا التراث فيقول :

« وأقول بالإجمال : إنه إذا صح لى أن أقول : إن كل ماأتصوره تصوراً واضحا متميزاً هو حق ، فليس هنالك ماهو أكثر يقيناً من وجود الله .

صحيح أنه كان لابد لى من كثير من الانتباه الذهنى للوصول إلى معرفة هذه الحقيقة ، ولكن مع أن هناك حقائق معروفة بجلاء لكل شخص ، وأخرى لانهتدى إليها إلا بعد طول نظر ، إلا أن هذه متى اهتدينا إليها لم تكن أقل يقيناً من تلك .

ولاجرم أنه لو كان ذهنى خالياً من أى حكم سابق ، ولو كان فكرى غير مشغول بوجود الأشياء الحسية انشغالا مستمراً ، لما كان هنالك شىء آخر أعرفه بأيسر وأسرع مما أعرف الله » ا. هـ .

وقد انتقل « ديكارت » بعد إثبات وجود الله ، إلى إثبات وجود العالم كما هو معروف .

شىء جلى واضح هو الذى يُكوِّن الذات :
شعورك بإنيتك ..

شعورك بوجودك ..

ولو بلغ شيء من اليقين هذه الدرجة فهو حقيقة ..

فالله حقيقة .. كما أن القضايا الرياضية حقيقة .. كما أن وجود الذات حقيقة .

وكل للفلاسفة أخذوا عن أسلافهم ..

وكان للفلاسفة المسلمين فضل أى فضل على من جاء بعدهم كما بينا .. وسنضرب مثلا آخر بفيلسوف واحد من فلاسفة المسلمين هو « الغزالى » .

فالإمام الغزالى سبق الفيلسوف الفرنسى « بليز بسكال » Pascal Pensées [١٦٢٣ – ١٦٦٢ م » الذى نثر فى خطراته ما أسماه – فى مجال إثبات وجود الله وصدق النبوات – دليل المراهنة والاحتياط ، وقد سبقه الغزالى كما ذكرنا إلى هذا الدليل ..

بل سبقه شاعر عربى فيلسوف هو أبو العلاء المعرى فى قوله :

قال المنجم والطبيب كلاهما لابعث بعد الموت قلت : إليكما !
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما !!

بل وسبقهم القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى على لسان مؤمن فرعون :

﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (١).

قال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ

(١) سورة غافر آية ٢٨

﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ (١)

***

والإمام الغزالى سبق الفيلسوف الإنجليزى « دافيد هيوم » [١٧١١ – ١٧٧٦ م] إلى فكرته التى اشتهر بها فى إنكاره للمعلولية والسببية ، بل وسبقهما إلى ذلك القرآن الكريم حينما عرض لقضية إبراهيم ودخوله النار دون أن تسبب له الإحراق ..

قال تعالى :

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (٢)

***

وكذلك الأمر بالنسبة للفيلسوف الألمانى « عمانويل كانت » [١٧٢٥ – ١٨٠٤] حينما قرر أن العقل ليس مسباراً كاملا ، وليس وسيلة مثالية للوصول إلى إدراك الحقائق ، فالعقل عند « كانت » لايدرك الشيء بذاته Momena وإنما يدركه كما يبدو له عن طريق الحواس ، فهو يدرك الظواهر Phenomena ويَخْفَى عنه غير ذلك .. كما يخفى عليه ماليس له ظواهر يدركها الحس ..

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢

(٢) سورة الأنبياء الآيات ٦٦ و٦٧ و٦٨ و٦٩ و٧٠

يقول الغزالى :

« كل مالا يدركه العقل ليس محالاً فى ذاته » .

***

إن عدداً كبيراً من فلاسفة الغرب المحدثين إنما ترجع شهرتهم إلى نظريات أخذوها جميعاً – أو على الأقل سبقهم إليها جميعاً – فليسوف إسلامى واحد هو الإمام الغزالى ، ومع ذلك نرى أن بعض المستشرقين – لأهداف عديدة – كانوا ولا يزالون حريصين على التقليل من شأن التراث الإسلامى فى ميدان الفلسفة والفكر ، ومن أسَفٍ أن عدداً من أنصاف الباحثين فى بلادنا لايزالون يؤمنون بما يؤمن به أساتذتهم ، ولو أجهدوا أنفسهم قليلا لانكشفت لهم الحقائق .. بوصفهم باحثين لابوصفهم إسلاميين .. بل بوصفهم باحثين وبوصفهم إسلاميين لايسلمون إلا للحق الذى يقوم عليه البرهان والدليل .

***

وبهذه المناسبة نسجل لهؤلاء مَلْحَظًا له أهميته فى هذا الميدان .. ذلك أن الإسلامية دعت إلى الفكر وجعلته عمادها وأساس دعوتها .. ولذلك ظهر فى ظل الإسلام مفكرون وفلاسفة اعتبروا أئمة فى الإسلامية الكبرى .. ودفع الإسلام معتنقيه إلى الشك قبل الإيمان .. وحكى القرآن حكاية إبراهيم الذى تطلع إلى القمر وإلى الشمس وإلى غيرها من الظواهر .. ثم دخل بعد الشك إلى الإيمان .

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً

قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

ومن هنا نرى كيف جعل الإسلام مرتبة المؤمن الذى يرث الإيمان مرتبة دنيا .. ومرتبة المؤمن بعد البحث والشك مرتبة لاتُعْلَى فى مراتب اليقين .. ولم يكن عجيباً أن تنهض الفلسفة الإسلامية الكبرى لاتخشى ولاتهاب .. وإن سطا بعض السلاطين والملوك على حقوق المفكرين والفكر فى بعض الأحيان لِهَوًى فى نفوسهم لا استجابة لما يدعو إليه الدين .

أما الذى حدث بعد أن دخلت المسيحية فى اليونان فشىء آخر .. فقدت العقول حريتها ؛ لأن المسيحية تطبع الناس بطابع الخضوع والرضوخ وتدمغ الفرد بدمغة القداسة .

فما تحرك فى اليونان فيلسوف واحد منذ دخلتها المسيحية وإن لم يبعد عن الأذهان محاكم التفتيش وقرارات الحرمان وعمليات القتل والحرق للأحرار فى القارة الأوربية كلها على مدى القرون ..

وكانت القرارات دائماً تصدر مدموغة باسم البابوات حراس الدين ..

كان الدين المسيحى دين محبة واستسلام ..

أما الدين الإسلامى فكان ولايزال دين حق .. يبحث عن الحق ، ويسعى إليه ، ويدعو الناس إلى الدفاع عنه .. دين جاد لايدير الخد لأحد ، ولا يصعر الخد لأحد .. دين جاد صريح لايدعو الناس إلى الإيمان المستسلم بل إلى الإيمان الجاد الذى يسبقه الشك ، وهو يرفع شأن العلم بطريقة لاتخلو من التحريض والتحقير لكل جهالة ..

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٥ و٧٦ و٧٧ و٧٨ و٧٩

قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« من تعلم بابا من العلم ليُعلِّم الناس أُعطِيَ ثواب سبعين صِدِّيقا » .

رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن مسعود ولايعلم غير المسلمين ما مقام الصِّدِّيقين عند الله .. إنهم بمنزلة الشهداء الذين يموتون فى سبيل المبدأ والعقيدة والإصلاح ..

***

ويكفى فى هذا الباب أن نعلم بأن الفلسفة الإسلامية التى ظهرت فى القرن السابع الميلادى سبقت الفلسفة المسيحية التى لم تظهر إلا فى القرن التاسع الميلادى ومابعده .. مع أن الإسلام ظهر بعد ظهور المسيح بأكثر من ستة قرون ..

ومنذ الوقت الذى أغلقت فيه المدارس الفلسفية فى اليونان وكانت نهاية الفلسفة اليونانية حوالى ٥٥٩ م أقبل علماء المسلمين على الدراسات الفلسفية إقبالا منقطع النظير ، وكانت المدارس الفكرية فى الإسلام تزحف زحفا غير مبطىء ، ولا متمهل .. وقد ظهرت مقدمات هذه المدارس مع ظهور الإسلام ، وفى القرن الأول الهجرى .. فالخوارج ، والشيعة ، والمرجئة ، ومدارس الاعتزال ، وغير أولئك – كانوا يناقشون كل صغير وكبير من تراث الإسلام ، وتراث اليونان ، وتراث الفكر بوجه عام ..

على أننا لسنا فى مجال المقارنات ، أو أن نفاضل بين فلسفة وفلسفة ، فالتراث الفكرى ثروة إنسانية مشتركة ، ولَبِنات فى البناء تضاف جيلا بعد جيل . لتنتهى بالإنسان إلى حاضر جاد حريص على البحث مؤمن بالحرية ، متطلع إلى أمام ..

***

(١) سورة الزمر آية ٩

وبعد ، فلعلنا لم نخرج عن موضوعنا ونحن نقدم لكتاب عن « حقيقة الفلسفات الإسلامية » .

ولهذا الكتاب قصة يصح لنا أن نسردها ، فتكون خير تقدمة له ولمؤلفه .

ذلك أنه راودتنى فكرة إنشاء أول مكتبة أهلية عامة ؛ يؤمها من يريد ليطالع فى مقتنياتها مايشاء لقاء مبلغ زهيد فى الشهر أو فى السنة .

ووكلت هذا المشروع لشقيق لى ؛ لعله أن يكون مصدر رزق له ، إلى جوار خدمته للثقافة والعلم .

ومن أسف أن هذه التجربة الطيبة تخلفت لأسباب عديدة . وتوقف المشروع .. كما توقف شقيقى عن مواصلة الطريق منذ أكثر من عام .

وكان يتردد علىَّ فى هذه الفترة بعض من شبابنا النابه ، فيهم الشعراء والمتأدبون ، وبعضهم صاحب قلم ، وقليل منهم صاحب فكرة .. ومن هذا القليل مؤلف هذا الكتاب ، الأستاذ جلال العشرى ، وهو زميل متخرج فى قسم الفلسفة بكلية الآداب .. نشأ نشأة قريبة من نشأة الفلاسفة ، حياته كلها تبتل وقراءة وبحث ، وروحه روح قلقة حائرة ، شاكة متحررة .. ونفسه نفس شاب متحفز إلى كل مافيه الخير للثقافة وللحرية .

كان يطيل الصمت ، فإذا تكلم كان كلامه عن روية وعمق .

وعرض علىَّ أمر هذا الكتاب فى أواخر عام ١٩٥٧ فتصفحته ووعدته بالعمل على نشره .. وهأنذا أقدمه للناس ، وأهديه إلى العالم الإسلامى وفاء بهذا الوعد ..

لم يكن فى مُكنة المؤلف أن يقول كل شىء عن الفلسفات الإسلامية بطبيعة الحال ، ولكن كان فى مكنته أن يعرض رأيه ، وأن يعرض موضوعه عرضا قابلا للنماء ، عرضاً مفتوحا وليس مغلقاً .. وفيه توجيهات قيمة جديرة بأن تُهَدى إلى الناس لتضاف إلى تراث الفكر .

وهو يستهدف النهوض بالفكرة الفلسفية عند المسلمين فى أصولها الأولى .

وله فى طريقة عرضه لهذا الموضوع خصائص أسلوبية لاتخلو من المتعة والجمال .

***

والفلسفة الإسلامية قد لاتمثل الإسلام ، ولكنها جزء من تراثه الثقافى .

والإسلامية اليوم تسود $\frac{1}{7}$ سكان العالم ، فما من سبعة من الناس يجتمعون فى صعيد إلا وواحد منهم مسلم ، أى أن تعداد المسلمين فى العالم يقارب أربعمائة مليون نسمة .

هذه الإسلامية التى خلدت على الزمن ، وتحطمت على صخرتها كل القوى المعادية تحتاج اليوم إلى تجديد .. وهى فى حاجتها إلى التجديد تتطلب دعامة من الرجال الأشداء الذين صقلتهم التجارب ، وصقلهم العلم ، وتابعوا تطور الإنسانية والفكر .

ونحن بدراستنا للفلسفة الإسلامية نجدد فهمنا لهذا الدين على ضوء من الفلسفة ، أو نجدد فهمنا لهذه الفلسفة على ضوء من الدين ، فندرك الأسس الأصيلة لكلم منهما ونحدد الهدف ، ونرسم الوسائل .

ولعل أول هذه الأهداف ، وأهم هذه الوسائل هو البحث فيما ورثناه عن أسلافنا .. هل خلا من الشوائب ؟! هل بانت معالمه ؟ وهل تكشفت خباياه ؟!

ولعل هذا الكتاب أن يكون محاولة جادة للإجابة عن هذا السؤال ؟

عبد الهادى مسعود

كلمة فى إثرها الكلمة

الإنسان ، الإنسانية . كلمتان متكاملتان تؤلفان معنى واحداً اسمه « الحياة » .

فإذا كان تاريخ حياة الإنسان هو عرض للأحداث ، وتاريخ حياة الإنسانية هو عرض للأفكار ، فإن عرض الحياة مناط الإكبار والإصغار ، سيان فى الأحداث أو فى الأفكار .

وتاريخ « الحياة » لايكون شيئا إن لم يكن تقديراً لما هو صواب أو خطأ ، أو لما هو أصيل أو منتحل ، أو لما هو صحيح أو زائف ، وماهو متعال أو متهابط ، وما هو ذروة أو حضيض .

وإذا اختلت موازين الحياة وهنت الحياة ، وإذا انقلبت تلك الموازين هانت تلك الحياة .

وقد يفتر الحس والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ، ولكن الذى لايفتر قط ولانخاله يفتر فى حين من الأحايين هو خصام العقول ، واصطلاحها ومهادنتها .

وإن أفدح مصاب تصاب به الحياة أن تأخذها سِنَةٌ ، أو نوم فتختلس فى تراثها وسط هذا البلبال ، وتواصل المسير بين دفتى طريق معكوس الميزان ، مقلوب المعيار ، على نحو مالو أمكن أن تكون ثمة فضيلة ضد الخير ، أو رذيلة ضد الشر .

يهون إذن كل شيء ولايهون ذلك الشيء وأنَّى له أن يهون ومصير الإنسانية رهن بمصير الإنسان ، والإنسان ليس موجوداً تاما كاملا بل هو تاريخ ناقص يكتمل .

من قديم واجه الإنسان الوجود المغلق ، وقال كلمته الأخيرة فى « دراما » الحياة ، فمضى يخترق حَيِّزَ الإغلاق وعينه مُوَكَّلَةٌ بهذه الغوامض والأسرار ، وأسفرت الرحلة عن بوتقة من القيم والمثل والمعتقدات يحياها العالم الحديث ، ويحيا بها ، ويسميها « تراثاً » .

فلوجه الله ولذمة التاريخ نتحرى أن نصون الإنسان ، والإنسانية ، نصون « الحياة » .

وهذا لون من ألوان البحث فى تاريخ الفلسفة الإسلامية لم يعتده واحد من دارسيها ، أذيعه وأنا أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ثائرين وبأن فريقا آخر سيلقونه مُتَبَرِّمِين ، ولكنى على ثورة أولئك وتبرم هؤلاء أومن بهذا البحث .

وهو إذ يعالج مسألة الفلسفة الإسلامية ، يريد أن ينتهى فيها إلى الحق .. لا نافيا ، ولامثبتاً ، ولا معلقاً إياها بين النفى لأنها قد تأثرت وبين الإثبات لأنها قد جددت .

نحن إذن بين فريقين : واحد يقبل الفلسفة الإسلامية كما قدمها له القدماء من الشرقيين أو المحدثين من المستشرقين فلا تمتد إليها يد النقد وإن امتدت فمرتعشة مرتجفة لاتحظى من النقد إلا بهذا المقدار الفقير .

***

صالح فريق من العلماء الفلسفة الإسلامية وتعصَّب لها ، وخاصمها آخر وتعصَّب عليها ، فلنتوسطْ نحن ونكنْ محافظين ولْنوازِن بينهما ولْنَرجِّحْ رأياً على رأى ، ولْنؤثرْ شخصاً على شخص قائلين : وُفِّق هذا وأخفق ذاك ، أو لنوفِّقْ بين هذا وذاك ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

فأنت ترى أن العقول كأنما قُدِّر لها أن تنقسم إلى طبقات ثلاث : أولئك متطرفون يُثبِتون ، وهؤلاء متطرفون ينفون ، والآخرون متحفظون يتوسطون بين أولئك وهؤلاء ، وأنت ترى أن الحقيقة كأنما قُدِّر لها أن تضل بين طرفين كلاهما ضلال ، والوسط أمعن مايكون فى هذا الضلال .

نحن إذن بين اثنتين : إما أن نجنى على أنفسنا وعلى العلم فلا نعرف لأنفسنا حقها ، ولانؤدى للعلم واجبه فنقبل ماقال القدماء من المؤرخين ونتبع تلك الطريقة « المقفولة » التى تنعطف بنا إلى التراخى والاسترخاء وتعرض علينا بضاعتها من تفسيرات « جاهزة » وصيغ جامدة ، وتواريخ نهائية ، وأحكام قطعية : تلك البضاعة التى يحتكرها فريق لايستطيع أن يجدد ولا أن يُحْيِيَ . وكيف نعم : وقد أدخل نفسه فى إطار نهائى وبقى الاعتراف بأنه أقصر باعاً وأضيق ذراعاً من أن يقوم بتجديد أو أن ينهض بإحياء .

ولم يكلف نفسه عناء الشك العنيف والبحث الشاق والتفكير المضنى، أو يتكلف مناهج البحث العلمى الصحيح ، ونتائج التفكير الحر الطليق ، وقد قال القدماء بأن هناك فلسفة إسلامية وفلاسفة إسلاميين ، وأن لهذه الفلسفة موضوعاتها ومشكلاتها ، وأن لهؤلاء الفلاسفة كتبهم ونظرياتهم ، وأن محاولة التوفيق بين العقل والنقل ، أو بين الحكمة والشريعة ، أو بين النظر العقلى والوحى الدينى تعد بحق مناط الابتكار ومعقد الطرافة فى الفكر الإسلامى .

وأن قد كان « الكندى » وكان « الفارابى » وكان « ابن سينا » من فلاسفة المشرق ، وكان غيرهم من أمثال « ابن باجه » و« ابن طفيل » و« ابن رشد » من فلاسفه المغرب .

قال القدماء عن الكندى كابن النديم مثلا : إنه « فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة »[1]وقال صاعد : إنه اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفا»[2]وقال البيهقى : إنه « جمع فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات »[3]وقال القفطى : « إنه فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها »[4].

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٥

(٢) صاعد : طبقات الأمم ص ٨١

(٣) البيهقى : تاريخ حكماء الإسلام – تتمة صوان الحكمة ص ٢٥

(٤) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤٠

قالوا لهم هذا عن الكندى فآمنوا ، وقالوا مثله عن الفارابى فآمنوا ، قال « صاعد » إنه « فيلسوف المسلمين بالحقيقة »[1] وقال « البيهقى » إن قد كان أبو على تلميذاً لتصانيفه[2] وقال القفطى إنه فيلسوف المسلمين غير مدافع[3] وقال ابن خلكان : إنه « أكبر فلاسفة المسلمين »[4] وقال حاجى خليفة : إن له كتابا سمى « بالتعليم الثانى ، فلذلك لقب بالمعلم الثانى »[5].

وقالوا لهم : إن ابن سنيا هو صاحب « الشفاء » و« النجاة » فآمنوا ، وإن ابن رشد هو صاحب « فصل المقال » و« مناهج الأدلة » فآمنوا .

وحفّظوهم من الصيغ مايرددون به هجمات الأعادى فحفظوا .

ثم تلوا عليهم من الأدعية والأحجية مايحفظ الإسلام وينصر المسلمين ، ورضوا بهذه الحال ودعوا إلى الله بالخاتمة وحسن المآل .

وهكذا يخيل إلى الباحث أنه قد وقف على الفلسفة وأحاط بتاريخها ، وإلى القارىء ، أنه قد درس الفلسفة وعرف تاريخها ، ويقنع المؤلف بأنه عالم ، ويقنع القارىء بأنه مطلع ، ويخبو تراث الإسلام شيئاً فشيئاً إلى أن يقف بعيداً عن ورثته ، غريباً فى دياره .

وتساءلت : هل هؤلاء بذلك يخدمون العلم بعامَّة والإسلامية بخاصَّة ؟ ولو أنى تمهلت لما تساءلت ؛ إذ الجواب كلا ، إن هؤلاء لم يغيروا فى الفلسفة شيئاً ، وما كان لهم أن يغيروا فيها شيئاً ، وقد عملوا على إراحة عقولهم ونفوسهم وإرضاء عواطفهم ونزعاتهم ، فانعطفوا على ماقال قدماء الإسلاميين وركنوا إليه وماوافق مذهبهم هذا قبلوه وماخالفه رفضوه وانصرفوا عنه .

وهكذا أغلقوا على أنفسهم فى الفلسفة باب الاجتهاد ، كما أغلقه الفقهاء فى

---

(١) صاعد : طبقات الأمم ص ٦١

(٢) البيهقى : تاريخ حكماء الإسلام – تتمة صوان الحكمة ص ٨٢

(٣) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٨٢

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ص ١٠٠ جـ ٢

(٥) حاجى خليفة : كشف الظنون على أسامى الكتب والفنون ص ٩٨ جـ ٣

الفقه ، والمتكلمون فى الكلام ، والصوفية فى التصوف ، وهذا النحو من الدراسات نقص وعيب :

نقص ؛ لأنه قاصر فيه عقم ، ولأنه جدب فيه قفر . وعيب ؛ لأن فيه خيانة وفيه خداعا ، وهو نقص وعيب معاً ؛ لأنه سبب فى تدهور حياتنا الفكرية وانصرافنا عن المباحث الإسلامية ، ووقوفنا عن متابعة السير ..

وتساءلت : أيتها الحضارة إلى أين ؟ إلى القبر فى هذه الأبهة وفى هذا المحيا الوضيء ، وفيك بذور العبقرية ولازالت فيك من الأصالة بقايا ؟

***

أما الفريق الآخر فهو هذا الذى لايقبل شيئاً مما قيل فى الفلسفة وتاريخها إن كان من القدماء الشرقيين أو من المحدثين المستشرقين إلا بعد تحرر وتشكك وتفكر وتشوف إن لم ينتهيا إلى اليقين فلن يجانباه ، وإن لم يبلغا الحق فلن يحيدا عنه .

هو يأبى أن يجنى على نفسه وعلى العلم ، ويؤثر أن يعرف لنفسه حقها ويؤدى للعلم واجبه ، فيشك ويحتج ويتمرد ويثور :

يشك فى هذه الأحكام « الجاهزة » التى تقدم له .
ويحتج على هذه الصيغ « الجامدة » التى تفرض عليه.
ويتمرد على هذا « الكسل العقلى » الذى يعيش فيه .

ويثور متجهاً صوب كل ما يفيض حرية وحيوية ومرونة وخصوبة فيظل أمينا على الحقيقة مخلصا للواقع .

هو يشيِّد معارفه على أساس من الذهن الواعى والفهم الراشد المستنير ، وعنده أن عقلا يتحرك وينبض بشىء من الحياة خير من عقل لاحراك فيه ولاحياة .

هو لايعرف شيئاً اسمه « فلاسفة الإسلام » ولكنه يعرف كتباً ورسائل ، ويريد أن يتبين هل هى حقاً فى الفلسفة ؟ وهل هى حقاً تمثل الإسلام ؟

وهو لايعرف شيئاً اسمه « فلسفة إسلامية » ولكنه يعرف أن القدماء من المؤرخين الإسلاميين قالوا ذلك .. ويريد أن يتبين : أصواباً قالوا أم ضلالا ؟

« فإن تاريخ الفلسفة بالمعنى الحديث لم يوجد فى الإسلام ، والذى عرفه المسلمون من دراسة تاريخ الفلسفة هو كتب الطبقات والتراجم »[1]« هذا كلام الإسلاميين فى الفلسفة الإسلامية ، مع قصوره عن تكوين منهج تاريخى ، هو فى غالب الأمر يعنى ببيان نسبة هذه الفلسفة إلى العلوم الشرعية وحكم الشرع فيها »[2].

إذن فهذا الفريق فى علاقته بالفلسفة الإسلامية إنما يتعامل بأدوات غير تلك ى يستعملها الآخرون ، فلا ينفذ إليها إلا بعد أن يسقط « الألفة » و« المودة » ويحل محلهما « الريبة » و« التساؤل » ويتساءل : « أهناك فلسفة إسلامية ؟ فإن كان هناك فلسفة إسلامية فما هى ؟ أهى وحدة كاملة أم أجزاء متكاملة ؟ وما السبيل إلى معرفتها ؟ وماهو منهجها ؟ وما هو طابعها ؟ وما مناطها وما مقوماتها ؟ وما صفاتها وماسماتها ؟ وماهو مكانها بين سائر الفلسفات ؟ وبم تمتاز دون سائر الفلسفات ؟ » .

ومنهجنا هذا فى دراسة الفلسفة الإسلامية فيه ثورة ، ثورة لاتقل فى تأثيرها وآثارها عن أى ثورة تُلْغِى قديماً كان الناس يعتزون به ، وتُزعزع يقيناً اعتاد الناس أن يُسلِّموا به ، وتُغيِّر تاريخاً حفظوه وألفوه واستحبوا ذكره .

ذلك أننى تحررت فى دراسة الفلسفة الإسلامية ، فشككت فى أصالتها وطرافتها فوضعتها « بين قوسين » وجعلت أبحث وأنزوى واستقرئ وأستنبط وأقارن وأوازن حتى انتهيت إلى حذف القوسين بإصدار حكم إلا يكن صواباً فهو إلى الصواب أدنى ، هو أن الفلسفة الإسلامية كما هى ممثلة فى الفلاسفة : فيلسوف العرب ، والمعلم الثانى ، والشيخ الرئيس ، والشارح الأكبر وأصحابهم وتلاميذهم ومريديهم ليست من الإسلامية فى شىء ، فهى يونانية لاتمثل حياة المسلمين وفكرهم وروحهم ومزاجهم كما تمثل حياة اليونانيين ، وفلاسفتها لاتلتمس حقيقتهم فى كتبهم بقدر ماتلتمس فى الإجابة عن هذا السؤال : إلى أى حد كانوا

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٥

(٢) المصدر نفسه : ص ٩٨ ،

مخلصين للواقع العربى الإسلامى ؟ وإلى أى حد كانوا أمناء على العقلية العربية أوفياء للشريعة الإسلامية ؟

فاذا رأينا أنهم ماكانوا مخلصين ولا أمناء ولا أوفياء أدركنا أنه لاينبغى الاعتماد عليهم فى استخراج الصورة الإبداعية للميراث الإسلامى . وعليه فهم خطيئات الإسلامية وأخطاؤها ، وكل إقحام لفلسفتهم فى الإطار الحضارى للميراث الإسلامى ينطوى على خيانة لروح الاسلام ، كما أن فيه تجنياً على كنه العقل العربى . وكيف لا وهم أصحاب التفكير المجانى ؟

وكيف ولا وقد جاءت الفلسفة الإسلامية نباتاً يونانياً خالصاً بذوراً وساقاً وفروعاً وأوراقاً ؟

وغاية مايقال فى هذه الفلسفة أنها مجموعة من « التركيبات » و« التشكيلات » فيها « خواطر » و« عوابر » ولكنها لاتمت بسبب إلى المذاهب الفلسفية الكبرى ، مؤتلفة الأجزاء ، متسقة الأبعاض ، فيها مناهج ونتائج .

إن « العينية » لأقل من « فيدون » .

و« الفلسفة الأولى إلى المعتصم بالله » لدون « الأخلاق إلى نيقوماخوس » .

و« والمدينة الفاضلة » لأصغر من « الجمهورية » .

و« الإشارات والتنبيهات » لأهون من « الكون والفساد » .

على أنى أحب أن أطمئن هؤلاء الذين يعطفون على الفلسفة الإسلامية ويجدون شيئاً من النشوة والارتياح فى أن يعتقدوا بأن هناك فلسفة إسلامية تتوج تعاليم الإسلام وأشغال المسلمين ، فلن يقضى هذا البحث على ذلك الحلم الوردى الجميل ، ويمحو وجود عبقرية إسلامية ، بيد أنى ألتمس مرآة هذه العبقرية فى مناح أخرى : ألتمسها فى حمية الدين ورفاهية العقل كما هما عند مفكرين من الإسلام وقفوا على حاضرات التراث اليونانى وقفة الجازم الرافض لها ولكل ملحقاتها ، فظهروا فى ثوب متكامل فيه استقرار القلب وتوقد العقل ، فيه حصافة الفكر وقوة الإيمان ، فما بحثوا إلا مايألفونه ويدور فى فلكهم ، ولم يتكلفوا مالا علاقة لهم به ومالا يجدى على ظروفهم شيئا .

وأنا واجد هذه العبقرية أصيلة خالصة مخلصة عن تلك التى اعتدناها فى مباحث الفلسفة وكتابات الفلاسفة : ذلك أنى لا أنكر الأصالة والطرافة والابتداع والابتكار فى الحضارة الإسلامية ، وإنما أنكر أن تمثلها هذه الفلسفة وهؤلاء الفلاسفة .

وأنا إذ أستبعد الفلسفة الإسلامية أبقى على وحدة التراث ، وفيه الكفاية ، ولم لا أفعل وقد جاءت فلسفة يونانية .. يونانية إلى أقصى حد ؟ والحى وحده هو الذى يقول « لا » وحى كميت هذا الذى لايقول إلا « نعم .

جلال العشرى

مقـــدمة
بحثنا .. وما المنهج ؟

بحثنا هذا يقع فى ثلاث مقالات :

الأولى : استبعادية ، عنينا فيها بالوقوف على البواعث الحقيقية لقيام حركة الاستشراق باعتبارها فاتحة الطريق إلى الثقافة الإسلامية وباعتبار روادها معالمه إلى الحياة العقلية والروحية فى الإسلام ، فرأينا إبرازاً لحقيقة هذه الحركة فى صورة متكاملة أن نقرنها بحركة أخرى لازمتها وسارت معها جنباً إلى جنب ، بل كثيرا ماتقدمتها الأولى ومهدت لها ، وتلك الأخيرة هى حركة الاستعمار.

فلابد من التوحيد بين الحركتين ، والنظر إليهما كوحدة مترابطة ، وربط هذا كله بواقع المجتمع الأوربى فى القرن التاسع عشر . ومن خلال هذه النظرة تتكاشف الحقائق التى تتستر وراء الظواهر ، وتتجمع كلها لتصب فى محيط واحد هو : استتغلال الشرق .

فحاصل حركة الاستشراق بعضه أنتج تجنيا موغلا ، وبعضه أثمر تعصباً ليس له مدى .

فهم يزعمون أن الحضارة العربية الإسلامية انعدمت فيها ملكة الخلق والإبداع ، وإن قدرت على نقل مبتكرات الأمم الأخرى . فهى حضارة امتازت بالنقل ولا ابتكار ، وبالتقليد ولاتجديد ، وبالاتباع ولاابتداع .

كما يدعون أن الأمم الشرقية إذ تطلب العلم تجعله هادفاً لا هدفاً فى ذاته ، وتحصله بقصد المنفعة لا لكشف الحقيقة من حيث هى ؛ فليس العلم عندهم للعلم ولكن للحياة . ولا كذلك الحال عند اليونان . ويرجعون هذا الزعم وذاك الادعاء إلى تفاوت

أصيل فى طبيعة الجنسين : الآرى والسامى ، فإذا رأينا أن بدعة القصور العنصرى هذه لا العلم يلجئنا إليها ولا شواهد التاريخ ، ولكن نزواتهم بأنهم أرق الأجناس البشرية وأحقها بالسيادة ، ونزعاتهم فى استعمار الشرق وتصريف شئونه ، فسّرنا بذلك حركة الاستشراق وربطناها بحركة الاستعمار ونعتناهما « بالغزو المزدوج » .

وعليه آثرنا استبعاد أية محاولة من شأنها إنكار الفلسفة الإسلامية « الغض من قيمة الميراث الإسلامى ، تقوم على دعامات عنصرية أو حتى تستند إلىآراء المستشرقين ، على أنى لا أنكر مالدراساتهم وكفاياتهم من فضل فى تبصيرنا بهذا الميراث ، ووعينا بمكانه فى تاريخ الفكر الإنسانى .

والمقالة الثانية انتقادية قصدنا بها معالجة قضية الثقافة الإسلامية بمبضع النقد بعد تعرفنا على سمات العقلية العربية الجاهلية فى براءتها الأولى « وماذا كان موقفها إزاء متباين التعبديات والاعتقاديات والديانات وسائر المذاهب والآراء والأفكار من صابئة إلى مجوس ، ومن يهودية إلى نصرانية ومن فارسية إلى هندية ، ثم إلى إغريقية تسربت جميعاً إلى جزيرة العرب كما جاءت بها قوافل الأعراب مع رحلة الشتاء والصيف .

وقد كانت الجزيرة تصطرع بكل هذه الممكنات الدينية والفكرية فضلا عن مشكلاتها الخاصة ، فأدى هذا الصراع بالعقلية العربية إلى أزمات عنيفة حادة أحال مادتها إلى عجينة لينة ، فصهر معدنها دون أن يشكله ، وأذاب خامتها من غير أن يجمدها على نمط ما ، وماهو إلا أن يجيء الإسلام حتى تنصب فى قالبه مادتها اللينة ومعدنها المنصهر وخاماتها المذابة وتخرج العقلية العربية الإسلامية تلك التى تمخضت عنها الإسلاميات المتهمة فى براءتها ، والتى لايتطرق إليها الاتهام .. وخلصنا إلى إدانة معطيات فلسفة الفلاسفة ، والإبقاء على تفقه المتفقهين ، وتكلم المتكلمين وتصوف المتصوفين .

أما إدانة الفلسفة الإسلامية فعلى أساس تسلطها على مرافق الثقافة اليونانية بعد هروبها من حظيرة الإسلامية وخروجها على أنماط الإسلام ، واتضاح تهافتها عند مقارنتها بالفلسفات المتكاملة ذوات المناهج ماتقادم منها وماتوسط وماتعاصر . كاليونانية والإنجليزية والإسلامية ممثلة فى الفقه والتكلم والتصوف .

وأما الإبقاء على الفقه والكلام والتصوف فباعتبار مباحثها معبرة عن « القطب الموجب » لأنماط الحياة الإسلامية العقلية والروحية .

وبعد : فحسب الفلسفة الإسلامية أنه لم تنطفىء فى يدها شعلة الحضارة البشرية فأحسنت استقبال تراث اليونان مدة إقامتها فى المشرق ، كما لم تتخلّ عنه ، وصحبته معها فى رحلتها إلى المغرب ، فسلمت الشعلة إلى من تلاها وقد ازدادت توهجاً وتوقداً .

***

والمقالة الثالثة والأخيرة ارتقائية ، خلصنا فيها إلى وضع الفكر الإسلامى وضعه الصحيح تدعيماً لأركانه وتحديداً لجهاته الأصلية ابتداء من ينابيعه الأولى ، وامتداداً به إلى العصر المعاصر .

ونقطة الارتكاز هى أن نلتفت إلى ميراثنا من فقه وفقهاء ، وكلام ومتكلمين ، وتصوف وصوفية ، فندرسه بحصافة العقل وتوقد القلب وحمية الدين ، ناظرين إليه كوحدة كاملة أو كأجزاء متكاملة ، لاتشتته تلك الفلسفة التى هى فى حقيقة الواقع تمزيق فى وحدة التفكير وانعطاف فى مجرى تياره ، فضلا عن كونها « فلسفة مجانية » .

أما نقطة الانطلاق فقد كانت عَبْرَ علم الكلام ومايقوم عليه من قرآن ، وانتخبنا مشكلتين من أكبر المشكلات التى شغلت العالم الإسلامى وتجلت فيهما عبقرية المفكر المسلم هما : التوحيد والعدل وأما هذا الطابع المميز للحضارة الإسلامية والذى وقفنا عليه فهو – فى اعتقادى – تلك « التأملية التجريبية » التى لاتُحلّق بالفرد فى العالم المعقول أوعالم الماهيات كما لاتغرقه فى العالم المحسوس أو عالم الموجودات .. وإنما تعمل الفكر التجريبى العلمى فى حقل الواقع ، كما تعمل فيه الفكر التأملى النظرى .

فكأنما جعلت من التأملية والتجريبية اتجاهين متآزرين فى تيار فكرى واحد وكيف لا والدين الإسلامى دين عبادة ونظر ومعاملات معاً ؟

ومن ثم فليست الحضارة العربية الإسلامية حضارة « سحرية » كما سماها « شبنجلر » مقابلاً بينها وبين الحضارة الغربية الأوربية والتى سماها حضارة « فاوستية » وإنما هى حضارة « تأميلية تجريبية » فى نفس الآن .

***

وبعد: فلما كانت خطة هذا البحث ليست عرضاً لمشكلات الفلسفة وليست سرداً لشتى حلولها ولا تعداداً لكتبها ورسائلها ولا جدولاً بأعمال الفلاسفة – وهذا فى اعتقادى أقرب إلى مهنة المكتبى منه إلى مهمة الكاتب – فإن دراستنا لشخصية مَّا أو نظرية مَّا لن تكون لذاتها ومن حيث هى ، بل باعتبارها طرائق إلى غايات أسمى كما أن الكتب والأسفار لن يهمنى منها الوقوف على السطور والكلمات بقدر ماتهمنى فى استخلاص الملامح والسمات .

فأنا لا أسأل الفلاسفة : ماذا قالوا ؟ ولكن : لماذا قالوا ؟ وكيف قالوا ؟ فكأن دراستنا لهذا الجانب هى دراسة من « الخارج » أكثر منها إيغالاً فى « الداخل » وحكمنا على قضية الفلاسفة فيما يتعلق بهذه الناحية هو بمثابة حكم على « الملف » ولا حكم على « الحيثيات » .

والواقع أن سيرة الفلسفة الإسلامية : تواريخ كتبها ، وتراجم رجالها لاتفتقر إلى المزيد من الحواشى والتفاصيل ، وإنما الذى تفتقر إليه هو المدخل القويم أو المنهج السليم التى تؤتى من قبله أحكام عادلة .

وإنه لمن نكد الطالع أن تنخدع أفهامنا بأن الفلسفة الإسلامية تلك المتمتعة بمجانية التفكير هى كل عينات النظر الفلسفى فى الإسلام وتلك هى الفكرة التى غلبت على هذه الكلمة فى مستعمل الكلام ودارجه ، وارتبطت فى الذهن بمدرسة الفلاسفة وحدها .

ولهذا آثرنا تقديم عينات أخرى للتفكير الفلسفى المسلم ، مما حدا بنا إلى تسمية مؤلفنا باسم « حقيقة الفلسفات الإسلامية » بدلا من تسميته الأولى وهى « أصالة الفكر الإسلامى تلتمس عند غير الفلاسفة » ومادامت لفظة « فلسفة » ليست وقفاً على مدرسة الفلاسفة ولاغير .

وآخراً فهذا هو منهجنا الذى نقول فيه ماقاله « بيكون » متحدثاً عن « أداته الجديدة » :

« ونحن على يقين من طريقنا لا من موقفنا »

« وما قاله « ديكارت » متحدثاً عن « مقاله فى المنهج » :

« وإن الإنسان إذا كف عن أن يتقبل الباطل على أنه حق ، لايجد قصياً لايستطيع الوصول إليه ، ولاخفياً لايمكنه الوقوف عليه » .

و « بيكون » و « ديكارت » هما باعثا عصر النهضة من قبر العصور الوسطى بعد أن اختفت القرون فى غياهب الظلمات .

المؤلف